نملتان في الفلفل

للدكتور زكي نجيب محمود

جلس الشيخ في دكانه محزوناً ؛ اعتمد رأسه على راحتيه وجعل يفكر : ما ذا أنا صانع يا رباه في جحافل النمل التي تهجم على سكّري في ظلمة الليل ؟ إنها لتأكلني أكلا إذ هي تأكل قوت عيالي ، وإني لمائل أسرة أكاد أنوء بحملها الثقيل ؛ لو كانت النمال مما يرعى مبادىء الأخلاق ، لناشدتها الضمائر ألا تسطو على ملك غيرها ، فحرام عليها أن تستريح بياض النهار في أعشاشها ، حتى إذا ما يسترها الليل بعتمته ، ملأت بطونها مما كدّ غيرها في جمعه وكدح ، حتى تندّى منه بالعرق الجبين . لكن — وا أسفاه — ليس للنمل أخلاق يُراعيها .

وتحير الشيخ في أمر هذا النمل ، كيف يعرف موضع السكر وإنه لجيء في علبة محكمة الغطاء ؛ وإن الشيخ ليغير مكان العلبة كل مساء ، فيضعها على الرف مرة ، وتحت النضد مرة ، ويكسوها باللفائف تارة ، ويعلقها في الهواء طوراً ... لكن النمل يعرف ! !

ولمعت فكرة في رأس الشيخ كاد يثب لها في مقعده : أما والله إني لأحمق مأفون ، أضع إصبعي في الفخ حتى إذا ما ضغط الفخ على إصبعي ، صرخت من ألم ! ألم أكتب على الصفاديق بيدي هذه بطاقات ، تعلن عما في بطونها فلمن كتبتَ

— يا أحمق — هذه البطاقات ، إن لم تكن للنمل يقرؤها في الليل ، وإنه لذو بصر حديد ، فيعرف موضع السكر من الدكان في حندس الليل ! لأنزعن من فوري هذه البطاقات عن أماكنها ، وكفاني من بلاهتي ما لقيت كفاني ... ونهض الرجل في حماسة لينزع ...

لكن لا ! لقد لمعت عيناه بفكرة أخرى ، فكرة افترت لها شفتاه بابتسامة عريضة ، ثم انفجرت بقهقهة عالية .. أأنا الرجل الذي يغلبه النمل على أمره ، وإن عُد النمل بالألوف لا بآحاد وأفراد ؟ أأنا الرجل الذي يغلبه النمل على أمره ثم لا ينتقم ؟ فبم إذن كان مقامي في حلقات العلم أعواماً إن قصرت بي عن ختام العلم فقد دنت منه ؟! ويحك الليلة مني يا نمال ! .

ونزع الرجل في زهو الظافر بطاقة السكر ووضعها على علبة الفلفل وكتب الفلفل على علبة السكر .

— سيأتي النمل الليلة أسراباً كعهده ، وسيقرأ العنوان فيظنه دالاً على مضمون الكتاب ، وسيدخل علبة الفلفل وفي وهمه أنه سيجد حلاوة كل يوم ، وما كل ما يتمنى المرء (يا نمل) يدركه ، تأتي الرياح (يا نمل) بما لا تشتهي السفن ...

وأوشكت الخطة أن يصيبها الفشل ، إذ جاء النمل ولم يقرأ ، بل ثم وانصرف ، إلا نملتين حفظتا القراءة في مدرسة من مدارس الإلزام ، فقرأتا وضحكتا من جهل الأخوات ، وتسللتا إلى السكر الموهوم ، فإذا داخل العلبة ديجور لم تعهداه فيما سلف من الليالي . وبيناهما تسعيان وراء الرزق ، صدمت نملة منهما نملة في بعض الطريق :

— ما لك الليلة ماذا دهاك ؟

— عتمة لم أعهدها ها هنا يا أختاه .

— لست أرى في الأمر اختلافاً عن المألوف .

— بل ألفتُ أن يتسرب من سماء هذا المكان شعاع ضئيل من الضوء يعكس شيئاً من بياض ، وإذا الأمر كله الليلة في عيني سواد في سواد ؛ ثم ألفت أن أسير على منبسط فسيح ، فإذا بي الليلة أدور مع موطىء القدم حيث يدور ، ثم ... لست أدري يا أختاه ماذا دهاني ، لعله مرض في جوف تغيرت معه طبيعة دنياي ثم ألِفت على اللسان حلاوة فإذا بالشيء يلسع الليلة لساني لسعاً أليماً ، حتى ليكاد اللسان من حدة اللسع يحترق .

— لك الله يا مسكينة ، ألا إن الأرض هي الأرض والسماء هي السماء ، والأكل كعهدنا طيب به حلو المذاق ، غيري من جوفك تتغير الدنيا في عينيك .

— أوائقة أنت أننا فى علبة السكر .

— قرأت العنوان بعينى ، وأذوق الطعم الآن بلسانى ، وليس إلى الشك عندى من سبيل . وفيم الريبة والسؤال ؟ دونك الكتوب فاقرئيه ، وليست الرحلة إليه بشاقة ولا عسيرة

— سأفعل ، لا ارتياباً فى صدق ما تقولين ، ولكن ليطمئن قلبى .

وخرجت النملة إلى ظاهر العلبة ثم عادت والتقت بأختها بعد تعثر فى الطريق وبحث فى الثنايا هنا وهناك .

— صدقت ، إنه السكر لا شك فيه .

— لا « يا أختاه » بل كل الشك فيه .

— وى ! ماذا تقولين ؟ ماذا تظنين ؟

— كأنه « يا أختاه » حبٌّ فلفل ، إنى لأحس الآن ما تُحسين ؛ فسوادٌ شديد حالك يسد علىّ مسالك الطريق ، وانبهاج فى الأرض لا يكاد يمكننى من السير ، ثم طعم لاذع يذيب اللسان ويمزق الأحشاء .

— لكنه السكر ، والبدال لا يخطىء الترقيم .

— نعم ، لابد أن يكون سكراً ، لأن البدال لا يخطىء الترقيم ؛ فصبراً جميلا ، حتى تملأ جوفينا مما رزقنا الله وإنه لخير مستساغ ، وإن كره البصر واللسان والأحشاء جميعاً !

وأصبح الصباح وعاد النمل إلى عشه ، لا لتستريح النملتان هذه المرة من عناء الليل ، بل لتتلويا من عذاب أليم كلما مضت فى جوفيهما الأمعاء ، والتقت السكينتان فى منبطح من العش :

— ليتنا ما أكلنا السكر .

— السكر ؟ !

— وماذا عساه فى ظنك أن يكون ؟

— اسمعى يا أختاه ، لقد ذهبت مع ظلمة الليل غفلتى ، وعادت إلىّ مع ضوء النهار حكمتى ، إن هؤلاء الناس لأصحاب خدعة فما فتئوا الدهر يخدعون ويُخدعون ، وإنى لأعلم من أمرهم ما لا تعلمين ، بل لعلى أعلم منه ما ليس يعلمون .

— ماذا تريدين ؟

— سأوضح لك الليلة ما أريد .

وجاء المساء وخرجت النملتان ، نملة تهدى وأخرى تهتدى تعالىْ معى فادخلى خزانة الكتب ، امسكى هذا الكتاب ما عنوانه ؟

— فى الفلسفة الإسلامية .

— ومن كاتبه ؟

— شيخ جليل فى طليعة الشيوخ .

— دونك فاقرئيه ، ماذا ترين فيه ؟

— لست والله أطالع فيه إلا فقهاً وما إلى الفقه .

— نعم ، وسماه فلسفة ليدخل الريدون خلال العنوان إلى فلسفة ، فإذا هم فى فقه يتقلبون ، كما دخلنا ليلة أمس على بطاقة من سكر ، فإذا الفلفل يملأ منا الأمعاء والبطون ... وهذا الكتاب الآخر ، ما عنوانه ؟

— خواطر أديب .

— ومن كاتبه ؟

— علمٌ من أعلام القلم .

— دونك فاقرئيه ، ماذا ترين فيه ؟

— لست والله أرى فيه إلا خليطاً من معرفة لا هى إلى العلم فى دقته ولا إلى الأدب فى جماله وصوره .

— نعم ، وجعله الكاتب أدباً ليتسرب إليه الراغبون فى أدب ، فإذا هم فى مرج آخر يمرحون ... اخرجى من بطون الكتب وهيا بنا إلى الحياة العريضة فى المنازل والشوارع ، انظرى هناك ، ماذا تبصرين ؟

— كومة من قمامة ... لا بل هو آدمى يتحرك .

— هذه القمامة البشرية يسمونها مدنية شرقية .

— كلا ، لا تمزحى ، بل ...

— وانظرى هناك ، ماذا تبصرين ؟

— شرطى يضرب إنساناً فى عرض الطريق .

— وهذا الطغيان السارى يسمونه مدنية شرقية .

— كلا لا تمزحى ، بل ...

— وانظرى هناك ، ماذا تبصرين ؟

— كأنى به مريض محموم أحاط به ذووه .

— وهذه الجهالة يسمونها مدنية شرقية .

— كلا لا تمزحى ، بل ...

— وادخلى هذه الدار فانظرى ، ثم ادخلى جماجم الرءوس وانظرى ، وسترين شيئاً عجباً يسمونه مدنية شرقية .

— كلا ، لا تمزحى ، بل المدنية الشرقية شىء غير هذا كله سمعتهم هكذا يقولون .